لُقَط العلم

بينا كان اعضاء مجمعنا العلمي ورئيسه وقوفا يوماً في بهو دار المجمع يهتمون بتفريغ صندوق جاءهم من باريز فيه اجزاء دائرة المعارف الفرنسوية الكبرى اذ حانت مني التفاتة الى القراطيس المتناثرة على الارض . وكانت دست في الصندوق حول مجلدات الكتاب تمنع تقلقلها واضطرابها . فرأيت بين تلك القراطيس رسالة مطبوعة صغيرة الحجم لا تتجاوز ورقاتها العشر . وهي مطوية على نفسها طياً غير منتظم . ويعلو ظاهرها لطخ من طين وحبر بحيث تنبو عنها العين وتشمئز النفس . وكان اسم الرسالة مكتوبا عليها باللغة الفرنسوية وانا يومئذ اسائل عن مصنف في هذه اللغة تكسبني ترجمته مراناً عليها . ويكون لي منه موضوع علمي يصح ان ينشر في مجلة المجمع ويهدى الى قرائها .

فهفا قلبي في إثر هذه الرسالة . واحببت الوقوف على سرها . وباطن امرها . وقلت في نفسي لعلها الضالة المنشودة . او احدى لُقَط العلم المحمودة فالتقطتها من تحت الاقدام . ومسحت عنها الاذى والرغام . واذا عنوانها ما ترجمته :

«البوذية والبرهمية . ثلاث رسائل صغيرة مترجمة من اللغة الكمبودية الى اللغة الفرنسوية»

اما مترجم هذه الرسالة فهو ادمار ليكلير (Adhémard Leclére) وقد افتتحها بمقدمة كتبها في مدينة (الانسون) احدى مدن ولاية نورمنديا الفرنسوية (بتاريخ ١٠ اغسطوس سنة ١٩١١) واستهلها بقوله :

(أهدي الى القراء الفرنسويين ثلاث رسائل صغيرة ظفرت بها أثناء وجودي في كمبوديا فترجمتها الى اللغة الافرنسية منذ عشرين سنة لتكون بمثابة تمرين لي على إتقان اللغة الكمبودية ثم منذ بضعة اسابيع عثرت على تسويدها بين اوراقي فاعدت قراءتها وتبين لي ان نشرها بين اهل بلادي مفيد لهم) قال (وان اثنتين من تلك الرسائل مترجمتان الى اللغة الكمبودية عن أصل سنسكريتي بوذي اما الرسالة الثالثة فمترجمة اليها عن اصل سنسكريتي برهمي . وكلها تبحث في موضوع واحد . وأراني مصيباً اذا نشرتها على جمهور القراء ملفوفة في قماط واحد)

وما كان اشد عجبي مذ رأيت المترجم الفاضل حريصاً على ترجمة هذه الرسائل إرادة التمرّن على اللغة الكمبودية وان يهدي الى قومه هدية ذات قيمة علمية . فاشبهت حالته حالي من هذا القبيل .

ولما زار المستشرق الفاضل (ماسينيون) هذا البلد منذ بضعة اشهر أريته اللُقَط وسألته عن مترجمها (أديمار) فقال انه من معارفه وقد كان والياً لفرنسا في (كمبوديا) وهو ثقة فيما يقوله عن تاريخ هذه البلاد ولغتها وتقاليد سكانها .

و (كمبوديا) احدى ممالك الهند الصينية الداخلة حمى في حماية فرنسا . وسكانها يشبهون اهل الصين في ملابسهم وعاداتهم واطوار اجتماعهم . ولغتهم الكمبودية فرع من اللغة السنسكريتية لغة الهنود المقدسة . وهم يدينون بالبوذية التي من اكبر اركانها عقيدة (التناسخ) .

وهذه العقيدة هي التي يدور عليها محور الكلام في هذه الرسائل الثلاث التي ظفرنا بها عرضاً وسميناها (لقط العلم) . وليس في هذه الرسائل ولا في مقدمة مترجمها ما يدل على الزمن الذي أُلفت فيه . لكن يظهر من موضوعها واسلوب كتابتها انها قديمة العهد جداً قد لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة .

ومن امعن نظره فيها أدرك لاول وهلة ان مؤلفها لم يحاول ان يقرر عقيدة التناسخ من حيث هي وانما اراد حض قومه على ممارسة الخير والفضيلة واجتناب الشر والرذيلة متوسلاً الى غرضه بحكايات ووقائع جرت بين ملوكهم وكهنتهم الاقدمين مفرغا ذلك في قالب قصصي . يلذ القارئ ويلقي في نفسه العجب من هذه العقيدة الغريبة في اطوارها واطوار المعتقدين بها .

و (التناسخ) في اللغة مشتق من (النسخ) وهو و (المسخ) في اصل معناهما واحد اعني النقل والتحويل . ثم شاع استعمال (النسخ) في تحويل الشيء الى مثله . ومنه قولهم (نسخ الكتاب) اذا نقل عنه مثله الى صحيفة اخرى . و (أبلاه تناسخ الملوين) اي أفناه وغيّره تحول الليل والنهار وانتقال احدهما مكان الآخر . اما (المسخ) بالميم فقد غلب استعماله في تحويل الشيء الى ما هو اقبح منه فيقال (فلان ما سخ لا ناسخ) و (ما نسخ الكتاب بل مسخه) و (مسخه الله قردا)

والتناسخ بمعنى العقيدة المعروفة هو من النسخ في اصل معناه اللغوي لان القائلين بها يزعمون ان النفس الناطقة تنتقل بعد الموت من جسدها الى جسد آخر أرقى منه فيكون هذا النقل جزاءً للفضيلة أو أدنى منه فيكون نقلها اذذاك قصاصاً على الرذيلة . فالاجساد كالقمصان والارواح تتسربل منها قميصاً بعد قميص . ومن هنا جاءت تسمية مذهب التناسخ بالتقمص ايضاً .

و (التناسخية) لا يقصرون التقمص على اجساد الحيوانات فحسب . وانما هم يذهبون الى ان النفوس في ترقيها قد تتقمص هياكل الملائكة النورانية . وفي تدنيها قد تتقمص اجسام النباتات او الجمادات الظلمانية . واذا فارقت الجسد لاول مرة لا تعود اليه الا بعد (٣٠٠٠) سنة وقال افلاطون (١٠٠٠٠) سنة ثم تعود الى مصدرها الاول .

وهذا المذهب قديم جداً في البشر . واشهر من دان به من الامم القديمة الهنود . وقال هيرودتس ان المصريين هم اول من علّم به . ولما جاء فيثاغورس الى مصر في القرن السادس قبل المسيح كي يتلقى الحكمة عن كهنتها اخذ عنهم هذه العقيدة ورجع بها الى قومه فنشرها بينهم .

ومن اشهر انصارها بين علماء اوروبا المتأخرين الفيلسوفان الفرنسويان فوريه (Fourier) المتوفى سنة (١٨٣٧) و يوحنا رانيود (Jean Reynaud) المتوفى سنة (١٨٦٣) .

وقال ابو القاسم البلخي ان التناسخية لم يقولوا بعقيدتهم هذه الا لما رأوا الاطفال والبهائم يتألمون وهم لم يجنوا ذنباً يستحقون به من خالقهم ذلك فهم اذن انما يعاقبون على ذنوب سلفت منهم في بعض ادوار حياتهم الماضية .

و بين عقيدة التناسخ و بين عقائد (الحلول) و (تحريم اكل اللحوم) و (انكار المعاد الجسماني) — نسب وعلاقة . و كل ذلك ناشئ عن اصل واحد وهو القول بقدم النفس الناطقة .

ولم يخل الاسلام من فرق تقول بهذا المذهب . وقد استدلوا عليه من القرآن بآية (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم) ففهموا من كلمة

امثالكم ان لهذه الدواب والطيور ارواحاً بشرية انتقلت اليها من البشر وهذا هو التناسخ . مع ان المراد من الآية : ان هذه المخلوقات مماثلة لنا في خضوعها للنواميس الكونية نشوءً وحياةً وموتاً فهي لا تتعدى هذه النواميس كما لا تتعداها نحن معشر البشر . وقد انشدوا لواحد من هؤلاء التناسخية المنتسبين الى الاسلام .

(إعجبي أُمَّنا لصرف الليالي جُعلت اختنا سكينة فاره)
(فاز جرى هذه السنانير عنها ودعيها وما تضم الغراره)

و (الغراره) الجوالق يوضع فيه الزاد والطعام . وقال آخر منهم :

(تبارك الله كاشف المحن فقد أرانا عجائب الزمن)
(حمار شيبان شيخ بلدتنا صيّر جارنا ابو سكن)
(بُدّل من مشيه بحلته مشيه في الحزام والرسن)

يقول ان جاره (ابا سكن) بعد ان كان يمشي في حلة من اللبوس الفاخر مسخ الى حمار ثم ملكه شيخ البلد المسمى (شيبان) وصار يمشي تحته في الحزام والرسن . ولا يعلم الا الله ما ذا كان ذنب المسكين (ابى سكن) حتى ابتلي بهذا النوع المضحك من العقاب .

وحدثني ثقة فاضل عن واحد يعرفه من اهل بلده وكان من البلاط (بضمتين اي الفارين من الجيش) فلجأ الى بعض كروم العنب مختبئاً متوارياً عن العيون . وكان صاحب هذا الكرم ثناسخيا . فاقامه ناطوراً على الكرم يحرسه . ولكن الرجل لم يفعل وجعل يسرق ويبيع العنب من غير علم الكرام . ولما سأله هذا عن العنب واين يذهب ؟ قال لا اعلم سوى ان طائفة من بنات آوى تأتي ليلاً وتأكل من العنب أكلاً زريعاً ولما طاردتها اعترضني قائدها وخاطبني بكل جرأة قائلاً « وما يعنيك انت من هذا الامر ؟ هذا الكرم انا كنت صاحبه . وصاحبه اليوم ابني فلما سمعت منه هذا القول تركته ولم اعد اتعرض له بسوء » . قال فلما سمع مني الكرام ذلك اخذ يبكي ويقول : دعه يأكل نعم هو ابني هو ابي .

وحدثني ايضا بعض الاشراف من نزلاء دمشق عن الشيخ احمد الكاملي المراكشي الذي وفد على هذا البلد منذ نيف وار بعين سنة وكان ضريرا شديد الذكاء سريع الحفظ واسع الاطلاع عجيب النادرة فاحتفل به علماء الشام وأعجبوا بعلمه الجم وذكائه الغريب . قال :

وكان معه تابع يخدمه حسن السمت . كثير الصمت . فقيل للشيخ من هذا ؟ قال : هو ابو هريرة المحدث . وكان الكاملي هـذا يروي عن نفسه انه كان في بلد كذا سنة كذا ثم مات فانتقلت روحه الى شخص آخر ثم الى ثالث وهكذا نحو سبعين مرة وهو يشعر بها كلها ويتذكرها .

وروى الامام ابو الفرج بن الجوزي في كتاب (تلبيس ابليس [1]) قال : كان يحضر معنا في بغداد شيخ للامامية يعرف بابي بكر القلاّس . فحدثنا انه دخل على بعض من كان يعرفه بالتشيع ثم جعل يقول بمذهب اهل التناسخ . قال فوجدته وبين يديه قطة سوداء تموء وهو يمسح ظهرها ورأسها ويحك بين عينيها فتدمعان . كما جرت عادت السنانير . واخذ هو يبكي بكاءً شديداً . فقلت له وما يبكيك ؟ قال ويحك ! هي امي ولا شك . اما تراها تبكي كلما مسحتها . وانما بكت حسرة وشفقة عليّ مذ رأتني . وجعل يخاطبها خطاب من عنده انها تعقل عنه ما يقول . ثم اخذت الهرة تموء قليلا قليلا . فقلت له : أهي تفهم منك ما تخاطبها به ؟ قال نعم . فقلت له أفتفهم انت عنها صياحها ؟ قال لا . قلت اذن انت الممسوخ وهي الانسان . ثم تركته وسألت الله العافية اه

وما جاء في هذه الحكايات والشعرين السابقين المنسوبين الى تناسخية العصور الاسلامية — يوشك ان يكون ترجمةً او تلخيصاً لما يروبه تناسخية الهنود الاقدمين في تعاليمهم وتقاليدهم حسبما نسمعه ايها القارئ في الرسائل الثلاث التي ضاق عنها هذا العدد وموعدنا بها العدد الآتي

المغربي

---

(١) هـذا الكتاب لم يطبع بعد . ونسخه قليلة جداً . عرفت منها ثلاثة او اربعة . عندي منها واحدة . وهو من خيرة كتب السُنّة . ومن احسن ما كتبه علماؤنا في نقد ارباب الاهواء والبدع . وقد اسهب القول خاصة في نقد احوال غلاة الصوفية . وربما أتينا على وصف الكتاب واقتبسنا فصلاً منه في عدد آخر من هذه المجلة .